المحاضرة الأولى: **المرحلة الثالثة:**

مقدمة عن: الأدب في أدب العصر الوسيط

درج كثير من الباحثين في علوم اللغة العربي وآدابها على تسمية الحقبة التي تلت انهيار الدولة العباسية وزوالها بيد التتر سنة 656للهجرة بـ ((الفترة المظلمة)) ، أو ((العصر المظلم)) ، أو ((عصر الانحطاط)) ، وهي تسمية ـ في ظنّنا ـ خاطئة وغير منصفة ؛ فإنَّ الأدب العربيَّ ـ وإنْ تأثّر بالأوضاع السياسية والاجتماعية ـ لم يهبط إلى الدَّرَكِ الأسفل من الانحدار والانحطاط كما تصوّر ذلك عدد من الذين دوَّنوا تاريخ الأدب في الحقبة المذكورة. وقد سمّيناها في دراسة موجزة سابقة بـ ((العصور المتأخرة)) ؛ أي المتأخرة زمنياً لا علمياً وأدبياً ، وتحاشياً من الوقوع في اللّبْسِ ارتأينا أنْ نُسمّيها في دراستنا هذه بـ ((العصر الوسيط)) الواقع بين انتهاء دولة بني العباس وابتداء النهضة الحديثة.

إنَّ الناظرَ بعين فاحصة وبتدبر وتقصّ في المصادر التي تناولت الأدب في الحقبة التي أعقبت الدولة العباسية ، سيجد صفحات مشرقةً ، ذات قيمة كبيرة تضاف إلى تلك الصفحات التي شاهدها في العصور السابقة ، وسيحكم بأنَّ هذا الأدب ((لم يُصَبْ بعجزٍ ، ولم يخامره فتور أو ضَعْف ؛ لأنَّ القوة الدافعة التي تعمل في باطنه لا تُغالبُ ، ولا تنال منها المؤثرات أو تَهْزمُها ؛ لأنّها تقبس اقباسها ودفعها من مصادر نفسيّة تتقدُ جذوتها أَبداً ولا يخبو لها أُوار ، وربّما بدتْ لنا في هذه العصور ـ إذا لاحظنا الأعاصير التي تناوحت حولها من الداخل والخارج اثبت لها راسخة شامخة ـ أشدَّ وقداً وأعلى سناً وسناء مما كانت عليه في دهرها القديم...)).

تمهيد :

الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية :

أَطلَّ القرن السابع للهجرة على الديار الاسلامية وهي في حالة ضعف وفوضى ، واضطراب وانقسام ، يتنازع فيه الملوك والامراء على النفوذ والسلطان ، ولم يكن الخليفة في بغداد بقادر على جمع الكلمة وتوحيد الصف ، ولاسيّما الخليفة العباسي المستعصم بالله ؛ فقد كان ضعيف الرأي منصرفاً إلى اللذة واللهو... إنَّ ضعف الخلافة ، وتفرّق الناس شيعاً واحزاباً ، وفقدان الأمن والطمأنينة ، شجعت هولاكو على الزحف نحو العراق والبلاد العربية والسيطرة عليها ، فتوجه نحوها ، واحتل في طريقه بلاد فارس ، وفتك بأهلها أشدّ الفتك ، و قبل وصوله الى بغداد حذَّر المخلصون من رجال الأُمة الخليفة المستعصم بالله من هذا الزحف المخيف والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه إنْ لم يبادر الى أخذ الحيطة والحذر واعداد جيش قويّ وتهيئة عُدَدٍ واصلاح الأوضاع الداخلية وتقويمها ، ولكنّه لم يلتفت إلى ذلك ، وترك الأمر سائبا في مهب الريح ، وبقي سادراً في لهوه. قال ابن الطقطقا (ت709ه) : ((وكان المستعصم اخر الخلفاء شديد الكلف بالهوى واللعب وسماع الأغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة ، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات

، ولا يراعون له صلاحاً ... وكتبت له الرقاع من العوام ، وفيها أنواع التحذير ، وألقيت فيها الأشعار في ابواب دار الخلافة ، فمن ذلك :

قُـــلْ للخليفـــةِ: مَهْـــلاً أَتَـــاكَ مَـــا لا تُحِبُ
هَـــا قـــد دَهَتْكَ فنـــونٌ مـــن المصائب غُـــربُ
فانهـــضْ بِعَـــزْمٍ وإلاَّ غَشَـــاكَ وَيْـــلٌ وحـــربُ
كَسْـــرٌ وَهَتْـــكٌ وأَسْـــرٌ ضَـــرْبٌ ونهْـــبٌ وسلْـــبُ

لقد حاقت المخاطر بالأُمّة آنذاك من الشرق والغرب ، كما اشار الى ذلك ابن الأثير(ت630هـ) بقوله : ((بُلِيَ الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبتل بها احد من الأُمم ، منها هؤلاء التتر ، قبحهم الله ، أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الافعال التي يستعظمها كل من سمع بها ... ومنها خروج الفرنج ، لعنهم الله ، من المغرب إلى الشام ، وقصدهم ديار مصر ... إن الذي يَسْلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق ... فإنَّا وإنّا إليه راجعون ، نسأل الله أنْ يُيسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده ؛ فإنَّ الناصر ، والمعين ، والذّاب عن الإسلام معدوم)) .

وكانت ألسنة الشعراء ما تفتأ تذكر حالة الأُمة المزرية والنوائب التي تنتظرها بعد غياب قوة الخلافة وهيبتها ، وسيطرة فاقدي الضمير والوجدان على الحكم ، ويعد الشاعر مجد الدين اسعد ابن ابراهيم النشابي (ت 656هـ) أجرأ شاعر في هذا الميدان ، فله قصيدة يشير فيها إلى اضطراب الأوضاع في آخر عهد بني العباس وفسادها ، واختلال الإدارة ، ونظام المصادرة ، والتعدي على الناس ، والقضاء على الحريات ، ومحو العدل والمساواة . وانتقد بشدّة الوزراء ورجال الخليفة المنشغلين بعبثهم وقصفهم ، الغارقين في غيّهم و مجونهم ، وتهجّم على رجال الدين الذين تركوا ما اوصاهم به الله وما اوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم وتقويم منآدهم ، قال في أوّلها :

يـــا سائلي ، ولمحض الحق يرتاد أَصغْ فعندي نشدانٌ وانشادُ
واسمـــعْ ، عندي روايات تحققها درايـــة وأحـــاديث وإسنادُ
فهـــم ذكـــي وقلـــب حـــاذق يقظ وخاطـــر لنفوذ النقد نَقـــادُ
عن فتية فتكوا في الدين ، وانتهكوا حماة جهلاً برأي فيه إفسادُ

وقد أدرك هذا الشاعر النابه أَنّ المصيبة واقعة لا محالة والبلاء سيعم الديار ، والكارثة ستهلك الكثيرين ، لذلك تمنَّى الموت قبل رؤية الفاجعة العظمى التي يشيب من هولها الولدان ، فقال :

الكفرُ اضـرمَ فـي الإسلامِ جذوتـهُ وليسَ يُرجى لنارِ الكفرِ إخمادُ
وَآضيعة الملكِ والدين الحنيف وما تلقاهُ مـن حادثات الدّهرِ بغدادُ
هتـكٌ وقتـلٌ وأحـداثٌ يشيبُ بهـا رأسُ الوليـدِ وتعذيبٌ وإصفادُ
أَيْـنَ المنيـة مني كـي تساورني ؟ فللمنيـةِ إصـدارٌ وإيـرادُ
مـن قبـل واقعةٍ شنعـاء مظلمة يشيبُ مـن هَوْلِها طفلٌ واكبادُ

لقد كان هذا الشعر وغيره صيحة في واد ونفخة في رماد ، حيث زحف (هولاكو) نحو العراق بمئتي ألف محارب ودخل بغداد سنة 656 للهجرة و قتل الخليفة و أناساً كثيرين ، واخضع لحكمه المدن العراقية عامة وأجزاء من الديار الشامية وأباد الكثيرين من فضلائها ...

الحياة الاجتماعية :

ساءت الأوضاع الاجتماعية بعد زوال دولة بني العباس ، تلك الدولة التي حكمت اكثر من خمسة قرون ، بلغت فيها الحضارة منزلة عالية ومكانة سامية ، وعاش الناس في ظلالها في منعة وحصانة ، آمنين على أنفسهم وما ملكت أيديهم .

لقد استولى الغرباء على البلاد ، وقسموها بينهم الى مقاطعات ، وتصرفوا في خيراتها ، وقضوا على موارد الثروة فيها ، وتركوا السكان الأصليين في بؤس وشقاء ، وحرمان وازدراء . كم فسدت الأخلاق ، وكثُر الدّجّالون الأشرار والمُفسدون ولاسيّما الذين كانوا يسمّون انفسهم ((الشطّار)) ، فقد عاثوا في البلاد فساداً ، وابتزّوا أموال الناس ظلماً وعدواناً ، وكم أحرقوا البيوت والزروع ، ورجال الشرطة واهل الاحتساب لاهون ساهون ، أو أنّهم كانوا يخافون فلا يستطيعون إيقاف أعمالهم المريبة أو الشائنة ، أو الحيلولة دون جرائمهم الشيطانية الغريبة. وكثر في المجتمع الغش وفساد الضمائر ، ولا ننسى في هذا المقام سوء الحالة الصحية وتفشي الأمراض وهجوم الطاعون والوباء بين حين وآخر. وشاعت في هذه الحقبة أعمال السخرة في البناء وشق الطرق والترع ، وازداد عدد الفقراء ... وكان كثير من الولاة ظالمين قُساة لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة ...ولم تكن حالة الأسرة أفضل من غيرها ، فقط تفكّك عُراها ، وانحط شأن المرأة ، وهبط مستوى أولادها ، وصار الرجل يقسو في معاملتها ويمنعها من الخروج ، ويُشدّد عليها الحجاب والانزواء عن مجالس العلم وحلقات الأدب التي كانت تغشاها في العصور السابقة.

ولو استعرضنا الحالة الاجتماعية في مصر والشام لوجدناها أفضل ممّا عليه في العراق، فإنّ المماليك حموا الديار التي سيطروا عليها من المغول القادمين من الشرق والصليبيين الآتين من الغرب.

إنّ الترفَ بلغ عند الكثيرين حدّاً بعيداً ولاسيّما في المأكل والمشرب والملبس... ومع هذا الثراء الوافر والنعيم الزاخر عند السلاطين والملوك والأعيان والتجار وأصحاب الأرض، فإنَّ الطبقة الدنيا من الناس كانت تعيش في كدٍّ دائم للحصول على ما يسدُّ الأود، وكثيراً ما تنتابهم الأوبئة الفتاكة ...

ومن المساوئ التي شاعت عند فريق من الناس آنذاك تناول المسكّرات ولاسيّما الحشيشة التي قال عنها المقريزي : ((وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوّاً زائداً ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً ، وتظاهروا فيها من غير احتشام)) ...

ومهما يكن من أمر ، فإنَّ جانباً كبيراً من المجتمع آنذاك كان محتفظاً بالأخلاق الأصيلة والفضائل النبيلة متقيّداً بأحكام الشرع المستمدة من الدّين الحنيف ، وكان لرجال الدين الفضلاء من قضاة وفقهاء وأئمة مساجد ، تقدير واحترام واجلال ، كما كانت للمناسبات الدينية والأعياد رعاية طيبة .

الحياة الثقافية :

ظلّت الحركة الفكرية في ظل الدولة العباسية زاهية زاهرة حتى أواخر ايامها سواء أكان ذلك في العلم أم في الأدب ، وكان للشعراء مقام محمود عند الخلفاء ...ولمّا نُكبت بغداد بالغزو التتري واجتاحت الجيوش المخيفة الديار ، وطوّحت يد الردى بمدن العراق ودارت عليها الدوائر، أصاب الناس عموماً بلاء كبير وشرٌّ مستطير من تقتيل ونهب وإحراق ، وذهب ضحية هذا الهجوم كثير من العلماء الفضلاء والأدباء النبهاء أمثال : الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الشاعر المشهور ، ومحيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ...أمّا المدارس ودور العلم وخزائن الكتب وربط الصوفية ، فقد أصابها أذى كبير ، واضحت لا تتجاوز أصابع اليد بعد أنْ كانت تتجاوز المئات ، ومن المدارس التي بقيت في تلك الحقبة ولم يصبها تلف كبير وتؤدي واجبها في التدريس : المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية ...أمّا في مصر والشام ، فإنَّ المماليك قد شجّعوا العلم وتكريم أهله ، فاكثروا من المدارس ... وبرز في عصرهم عدد كبير من العلماء والأدباء ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ) صاحب كتاب ((لسان العرب)) ، وأبا الفداء الملك المؤيد إسماعيل بن علي(ت732هـ) مُؤلف ((المختصر في اخبار البشر)) و ((تقويم البلدان)) ، و شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ) صاحب الكتب القيمة مثل : ((طبقات القراء)) ، و((طبقات الحفاظ)) و((ميزان الاعتدال)) ، و((سير أعلام النبلاء)) ، و ((تهذيب التهذيب)) ... ، وأحمد بن يحيى (ت749هـ) صاحب ((مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)) ، و جمال الدين ابا محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الانصاري (ت761هـ) صاحب المؤلفات المشهورة في النحو مثل : ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) ، و ((شذور الذهب)) ، و ((قطر الندى و بل الصدى)) ، وخليل بن أيبك الصفدي (ت

764هـ) صاحب كتاب: ((الوافي بالوفيات)) و ((نكت الهميان في نكت العميان)) ، و عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل (ت769هـ) شارح ألفية ابن مالك ، والمؤرّخ المفسر المشهور ابن كثير (ت774هـ) صاحب ((البداية والنهاية)) والمقريزي (ت845هـ) صاحب كتاب : ((السلوك في معرفة دول الملوك)) و ((إغاثة الأُمّة بكشف الغمة)) ، و جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت874هـ) صاحب ((النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)) ، و شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت908هـ) صاحب ((الضوء اللامع أعيان القرن التاسع)) ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) صاحب التصانيف الكثيرة في علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ والأدب واللغة ... مثل : ((تاريخ الخلفاء)) و ((حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)) ، و ((نظم العقيان في اعيان الاعيان)) ، ((بغية الوعاة)) ...

وممّا يجدر ذكره هنا أنّ اللغة العربية وعلومها وآدابها كانت مزدهرة في العصر المملوكي ؛ لأنّ المماليك كانوا يتعلّمونها ويعلّمونها أبناءهم ومماليكهم ، ويشجعون على اتقانها ، والبراعة فيها وفي علومها وآدابها ((وأُلّفت كثير من الكتب برسم كثير من السلاطين ،وإنّ الكثرة ممّا بأيدينا من كتب الادب العربي الآن ، إنْ هي إلاّ ثمرة من ثمرات هذا العهد الميمون الذي لم تتعرض كتبه لما تعرضت له كتب الشرق والغرب من حرق وإتلاف)) .

ولمّا جاء العثمانيون واحتلوا العراق والشام ومصر والحجاز اقتصر التعليم على فئة قليلة من الناس ، وفي المدن الكبيرة ، وظهر عدد من المؤلفين - وان لم يكونوا كثيرين - في علوم اللغة العربية وآدابها .

أَمّا ديار المغرب العربي فإنّ الثقافة بقيت مزدهرة فيها ، وكان لعلمائها وأُدبائها دور بارز في نقل الحضارة العربية إلى أُوروبا ،وقد ازدادت مكانة العلوم و المعارف رفعة وسمّواً فيها بعد نزوح العلماء والأدباء والفنانين والبنائين من الأندلس إليها ، وظهر فيها مفكرون كبار مثل : أبي الحسن حازم القرطاجني (ت684هـ) الأديب الناقد البلاغي صاحب الكتاب المشهور ((منهاج البلغاء و سراج الأدباء)) ، و المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ) صاحب المقدمة المشهورة ، مقدمة ابن خلدون من مؤلفه : ((كتاب العبر ، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)) . وأحمد بن محمد المقري التلمساني (ت1041هـ) صاحب المؤلفات القيمة مثل : ((أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)) و ((روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس)) ، و ((نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب))...

لقد أصاب ديار المغرب العربي بعد ذلك الإشراق ، أَذى كبير ، وخبت جذوة المعارف والعلوم ، بعد الصراع الأُسر الحاكمة فيها ، ثم الاحتلال الأوروبي .